

الخدمة الاجتماعية

في ميدان الخدمة الاجتماعية

للدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

السكرتير العام لوزارة الشؤون الاجتماعية

”الخدمة الاجتماعية روح يتغلغل في جسم المجتمع ودم يجري في شرايينه
فيبحث فيه القوة والنشاط . وفي هذا المقال المنع بين لنا الكاتب كثيرا
من النواحي التي يجب أن يصرف إليها نشاط الخدمة الاجتماعية ويحدثنا
عن الشروط التي يجب أن تتوافر من يضطلع بهذه المهمة السامية“
المحرر

أفلحت الإنسانية في الانتصار على كثير من صعاب الحياة وآفاتنا ، واستطاع العقل
البشري أن يتكبر من دقيق الاختراعات ما يهزم به هذه الصعاب إلا شيئا واحدا عجز العقل
والاختراع عن التغلب عليه وهو الشقاء .

وجاء الشقاء منذ وجد الإنسان ، وظل ملازما له في كل زمان ومكان ، ومحال أن
يكون لإنسان أمان من الشقاء مهما اجتمعت حوله أسباب الدعة والنعيم .

ولقد اتخذ الشقاء صوراً وألواناً مختلفات . فبعد أن كان معنى الشقاء عند الناس التجرد
من المال أصبح يشعر به كثيرون ممن لم يعرموا نعمة المال ، فالذين لم يوفقوا في علاقاتهم
الاجتماعية أشقياء ، والذين ضعفت نفوسهم وعقولهم وأخلاقهم فثاروا على المجتمع وارتكبوا
الجرائم أشقياء ، والعجزة الطاعنون في السن أشقياء ، والأيتام والأرامل والمصابون بالأمراض
المستعصية أشقياء ، وكل دورة من دورات الزمن ، وكل حادثة من حوادثه كالحروب
والزلازل وطفيان الأنهر والسيول ، واشتداد الغلاء أو الضحك الاقتصادي ، كل أولئك يخلق
شقاءً وأشقياء جديدين .

وحينما وجد الشقاء وجد من يحاول تخفيفه وتقليل ويلاته ، وأول الوسائل في هذا
الباب الصدقة يقدمها المرء إلى المعوزين من أهله وعشيرته الأقربين ثم إلى غيرهم من
المحتاجين ، ولو لم تكن له بهم صلة .

هكذا كان أول عهد البشرية بالصدقة يجود بها الفرد على الأفراد . ثم وجدت فكرة التعاون عليها والقيام بها جماعات لا فرادى ، وكانت بابل واليونان أسبق أمم الأرض إلى تنظيمها وابتكار وسائل تعاونية لمساعدة الأيتام والأرامل والعجزة وجرى الحروب ، وأخذ أطباء الأمم القديمة وكهانها وحكامها يعنون بتطبيب المرضى والفقراء اللاجئين والغرباء ، فكانت هذه المحاولات الانسانية هي الأسس الأولى لفكرة المستشفيات والملاجئ .

وربما كان التفاخر وحب الثناء عند الأفراد ، وللاغراض السياسية عند بعض الأمم ، الدخول الأول في تقديم الصدقة أو تنظيمها . لكن عاطفة الإحسان أصيلة في الطبع البشرى على كل حال . ولما نزلت الأديان السماوية جاءت كلها أمرة بالصدقة موصية الأغنياء والقادرين بتقديم العون إلى الفقراء والضعفاء ، والاسرائيلية والمسيحية والإسلام كلها تدعو إلى إيتاء ذى القربى وإطعام الفقير والمسكين ومواساة العائل واليتيم وتحض على أن يجب الإنسان لأخيه ما يجب لنفسه .

ومضت الانسانية في طريق التعاطف والرحمة عاملة على الموازنة بين حاجة الفرد وحاجات بيئته إذ أن قوة البيئة مستمدة من قوى أفرادها على اختلاف حالاتهم ، وكلما كثر العاجزون والفقراء والمرضى والأيتام وغيرهم من الأفراد الأشقياء ، كان في ذلك تجسم للشقاء العام .

ولقد يرجع شقاء الأفراد الى أسباب يكون المجموع هو المسئول عنها ، إذ أن المرض مثلا قد لا يرجع في كثير من الأحوال الى تقصير الفرد في العناية بجسمه وصحته ، بل الى رداءة المسكن المخصص له ، أو المصحح الذى يعمل فيه أو تقصير الجهات المسئولة في صيانة الصحة العامة ، وقد يرجع الى تفهقر الصناعة أو تغيير أنظمتها أو الى أزمة من الإزمات .

وكذلك يمكن أن يعزى الكسل والتسول والنشرد والإجرام والبغاء الى عوامل خارجة عن قدرة الفرد كاهمال العناية بالطفولة أو بالصحة أو بالتعليم ، وكل هذه الأسباب لا ذنب للفرد فيها وليس هو بقادر وحده على مداواتها ، أعنى مداواة هذه الأنواع المختلفة من الشقاء ، بل القادر على العلاج أولا وآخرها هو الجماعة .

وواضح من هذا الترابط الطبيعى بين الفرد والجماعة أنه ليس من الممكن تحديد أسباب الشقاء ولا تحديد المسئول عنه ، وبذلك لا يجوز القول بأن هذا فقير يستحق الإحسان وهذا فقير لا يستحقه ، ولا يجوز أن نعى بهذا دون ذاك ، ولكل شئ حق على المجموع فى أن يعنى به ويخفف من شقائه ما استطاع الى ذلك سبيلا : للضعيف حق على القادرين ، وللريض حق على الأصحاء ، وللشرد حق على الناعمين الآمنين فى مساكنهم ، وللأسرة البائسة حق على الجيرة

والأصدقاء ، تلك هي أهم الخانات في سلسلة الخدمة الاجتماعية التي نحض عليها ونبذل الجهد لتنظيمها وتعميمها ، كي نبعث أشعة السعادة في كل الأجواء ، ونهدد ما ينشئ البلاد من ظلمات الشتاء .

ولتبيد الشتاء والوقاية منه وسائل كثيرة ، منها ما يستند إلى المال كالتأمين الاجتماعي لحماية المرضى والعجزة والعاطلين ، أو كالحيل المألية التي تمنح للأسر الفقيرة ، ومنها ما يستند إلى الإصلاح الخلقى ونهى الناس عن الرذيلة والفساد ، ومنها ما يقوم على العناية الصحية وتعليم الناس كيف يتقون عدوى الأمراض ، ومنها ما يتصل بالأمن كمنع حوادث الإصابات أثناء العمل وأخذ الطريق على الجرائم قبل وقوعها ، ومنها ما يتعلق بتنظيم الحياة الاقتصادية داخل البلاد وخارجها ومقاومة الفقر والعطل بتوفير مواد الكسب وتهئية أسباب العمل ، وبذل كل جهد لإسعاد الشعب وتمتع كل فرد منه بنصيب من نعم الحياة ومباهجها ، وينطوى تحت هذا الغرض الأخير إنعاش التجارة والصناعة والزراعة وكل ما يمكن أن يضع في أيدي الناس مالا ويوفر لنفوسهم هناء وراحة ، إذ أن أثر هذا الإنعاش يعم كل طبقات الشعب وكلما كثر المنعمون قلّ الأشقياء ، وكلما تزايد عدد الأصحاء جردا وعقلا ونفسا تناقص عدد الضعفاء والجاهلين والمحرومين .

إن المجموع جسم والأفراد هم أعضاؤه ، وهذه الأعضاء كلها يتصل بعضها ببعض ، والروح والشعور ساريان في الجميع ، فكل نقص يعترى الجزء يشعر به الكل . هكذا يجب أن تكون نظرة المصلح الاجتماعى واتجاهه ، ويجب أن يذكر دائما أننا في تكويننا الاجتماعى نرجع الى خلية واحدة اذا تقسمت فان هناك وحدة تجمعها هي نفس الوحدة التي تجمع بين الروح والجسم ، والصحة الحقيقية هي الاحتفاظ بتلك الوحدة سليمة قوية . وذلك يتوقف على نشاط الأعضاء وحسن الانسجام بينها . وكما يضر الجسم ما يطرأ عليه من مرض روحي أو نفساني فالعكس بالعكس ، إذ أن "النفسيات" كالغضب والقلق والخوف أثرا في حالة الجسم وأعضائه وعلى الأخص القلب والأمعاء ، لهذا لا يمكن في حماية الصحة ما يقوم به الطبيب من تطهير الجسم من السموم ، بل يجب — بجانب ذلك — حمايته من مؤثرات البيئة ومن فعل الظروف المحيطة به وهي مختلفة كثيرة القلب ، ومعنى هذا وذلك توثيق الصلة بين الجسم والروح أو بين الأعضاء الجسمية والشعور النفسى لأن تغير الظروف المحيطة بالإنسان ينشط ناحية فسيولوجية في الجسم لكي تقوم الأعضاء والأعصاب والدم بشيء تواجه به هذا التغير .

ألا ترى أنك إذا أبصرت عدوا أرهفت أعصابك وازداد قلبك خفقانا وتخفرت المقاومة الجسمية ولدفع الخطر ؟ وهنا يأتي دور المقدرة على "الملاءمة" التي تمكنك من مقاومة

الظروف المحيطة بك ، فنشأ لديك قوة الاحتمال والصبر . وكلما مكن الانسان من استغلال ما لديه من القوى استطاع أن يقوم بدوره على مسرح هذا العالم ويحيا حياة سعيدة . ونحن قادرون على أن ننشئ هذه الحياة بل على أن نصوغ حياتنا كما نشاء ، ناعمة أو تافهة ، قوية أو ضعيفة ، حسبما تنجم اليه من أغراض طيبة أو سيئة ، ومن مثل عالية أو دابطة .

إلى هذه الناحية ، ناحية إسعاد الحياة يجب أن يلتفت المصالح الاجتماعي حتى الالتفات ، فيعمل على تعميم المعيشة الحسنة في المدن ، وعلى رفع مستواها في القرى حتى يشعر أهلها بأنهم آدميون حقا ، ويتمتعوا بما يتمتع به سواهم من مسكن صحي وماء نقي وطعام نظيف ثم على نشر التعليم وترقية حياة العمال وصحتهم وتنظيم أوقات فراغهم .

هذه كلها سبل إلى تخفيف الشقاء بقدر ما هي سبل إلى توفير السمادة والهناء ، بل هذه رسالة سامية لا يؤديها إلا المخلصون الأكفاء .

ولقد حمل هذه الرسالة أول الأمر رجال قلائل صفت نفوسهم وخلصت نواياهم ، وعمرت قلوبهم بحب الخير ، وعز عليهم أن يسكتوا على مآثره الإنسانية من آلام ، فكانوا الطليعة الموفقة في ميدان المروءة والعمل الصالح ، والمعلمين الأول لدروس الخدمة الاجتماعية ، قاموا بهذا العمل الإنساني أفرادا وقاموا به جماعات منظمة يبذلون المال للفقير ويتقصون أسباب الشقاء في كل طائفة ليعملوا على درئها أو استئصالها ، على أن هذه الجماعات لم يستقم أمرها ولم ينتظم سيرها في أوروبا وأمريكا إلا في أوائل القرن التاسع عشر حين بدأ الناس يؤمنون بأن الاحسان غير المنظم لا يؤتي ثمرة المرجوة ، بل قد يؤدي المجتمع ، إذ كثيرا ما يبذل في غير وجوهه الصحيحة ، أو يستغله غير المحتاجين .

ولقد اطرده تنظيم الاحسان في أكثر البلاد الغربية ، فأنشئت جمعيات مركزية تضم عددا من جمعيات البر المستقلة كان أهمها جمعية لنوره التي أنشئت سنة ١٨٦٩ ووضعت نظاما يمنع سوء استغلال الاحسان ويقضي بالبحث الدقيق في الحالات الضرورية ، وبالتعاون بين الهيئات المختلفة التي تقوم بأعمال البر وتقدم المعونات إلى مستحقيها ، وقد تطوع لتنفيذ هذه الأعمال الإنسانية عدد من المتطوعين في أول الأمر ، ثم دعت الحال إلى استخدام عدد من الموظفين حين اتسعت دائرة العمل في هذه الجمعيات وتعددت ميادين خدماتها الاجتماعية .

ومن الحق أن نقول إن كل شيء في هذا المجتمع يحتاج إلى الخدمة الاجتماعية : فالطفل عند ولادته مفتقر إلى هذه الخدمة ترعاه هو وأمه خصوصا إذا نشأ ضعيفا أو ذا عاهة .

فهو اذا وجد الرعاية والعلاج دخل على المجتمع الانسانى عضوا نافعا ولم يندفع الى طريق الشرذ أو الاجرام .

وكذلك الرجال والنساء والشبان والشابات ، كلهم فى حاجة الى خدمة اجتماعية تهديهم سواء السبيل ، وتخفف عنهم أثقال الحياة . ولا تطلب هذه الخدمة للأفراد وحدهم بل للطوائف أيضا ، فـأأحوج العمال فى مصانعهم الى من يرعى صحتهم ويراقب سلامتهم من أخطار العمل ويهئ لهم فى أوقات فراغهم وسائل التسلية والترفيه ، وما أحوج الأحياء الفقيرة الى خدمة اجتماعية تدفع عنها المرض وتخفف الفقر ، وتدعى الى خلق عمل للعاطلين والى تهذيب نفوس الفاسدين والعابثين ومدمنى المخدرات والعاكفين على المسكرات والمصابين فى أخلاقهم بختلف العادات ثم الى تقوية أواصر الود بين الناس ، ونزع الأضغان من صدورهم وإصلاح ما ينشب من الخصومات بين الزوج وزوجه وبين الولد وأهله وبين الجار والجار .

الخدمة الاجتماعية اذن روح يتغلغل فى جسم المجتمع كله ، ودم يجرى فى شرايينه فيعمت فيه القوة والنشاط والشباب . ومن الحق الا يضطلع بهذه المهمة الا من يؤمن بها ايمانا صريحا ، ومن كانت له شخصية قوية وجاذبية فعالة ونشاط جم وخلق متين وقدرة على الاقتناع والارشاد وشئ من الإلزام بختلف العلوم التى يحتاج فى عمله الى تطبيقها ، كبادئ الصحة والاجتماع وعلم النفس والقانون . وتيسير تحصيل هذه العلوم أنشئت مدارس الخدمة الاجتماعية فى أكثر عواصم العالم المتحضر ، شاملة من الدراسات الوافية ما يجعل خريجها صالحين لتولى هذه المهمة الجليلة ، بعد شئ من المراتبة العملية التى لا غنى عنها وبرامج هذه المدارس شاملة لكل ما يحتاج اليه المصطلح الاجتماعى الذى قرر كثير من أصحاب الرأى أن مهنته لا تقل أهمية عن مهنة المحاماة ، ولا يصح أن يقل ما يتأمله صاحبها عما يتعلم من يتأهل للمحاماة . ولدينا فى القاهرة مدرسة للخدمة الاجتماعية أرى من واجبي أن أحض شبابنا والراغبين فى خدمة المجتمع على الانتظام فى سلكها حتى يقوموا لمواطنيهم بأحسن وأبرك الجهود .

هذا وللرأة مكان الصدارة فى الخدمة الاجتماعية ، فهى بطبيعة حنائها ورقة عواطفها أقدر على تخفيف الآلام وتضميد الجراح ، وهى أنفذ من الرجل الى أعماق النفوس والقلوب فلتسابق سيداتنا وأناستنا فى هذا المضمار النبيل ، ففى مثل هذه الغايات الانسانية الجليلة يجب أن يدافس المتنافسون ما

محمد عبد المنعم رياض